الفصل الثانى

عـــزام شاعـــرًا

ملك عزام ناصية اللغتين العربية والفارسية نظمًا ونثرًا، وأضاف إليهما معرفة جيدة بالتركية والأوردية، لذا لم يكن غريبًا أن يكون رائدًا مبدعًا ومتميزًا فى حقل الدراسات الشرقية. وبقدر اهتمامه باللغات الشرقية الإسلامية المختلفة. من فارسية وتركية وأوردية فضلاً عن اللغة العربية التى هى اللغة الأم للغات الشرقية الإسلامية وآدابها، كان اهتمامه كبيرًا بتاريخ الشعوب وحضارتها، وبدراستها جغرافيّا واجتماعيّا وسياسيّا، فى ماضيها وحاضرها، وأمله فى مستقبلها ومن ثم كان رائدًا لتلك الدراسات بمفهومها الواسع، وليست اللغات بمعناها المحدود.

زاد تملكه ناصية القريض فى قدرته عن التعبير عن أفكاره وترجماته نثرًا وشعرًا، وهو أمر إذا توفر لإنسان منحه التميز والتفرد.

خلف عزام أشعارًا معبرة عن ذات نفسه أو عن آماله وآلامه وآمال أمته العربية والإسلامية، أو عبر بها عن ترجمات لرواد الفكر فى الآداب الإسلامية المختلفة. أوضحت تملكه ناصية الشعر وقد اتضح هذا منذ شبابه، حين أخذ ينقل عن الشعر الفارسى أو التركى أو الأردى وأساطينه، أمثال: الفردوسى وسنائى ونظامى الكنجوى وعبيد الزاكانى وجلال الدين الرومى، وفريد الدين العطار أو محمد إقبال أو فى رده على محمد إقبال جوابًا لكتابيه "أسرار خودى ورمو زى خودى"، وهو الرد الذى عُرف باسم "اللمعات".

وقد ذكرت جانبًا من أشعاره أثناء الحديث عن عزام رائدًا... وأحاول فى هذا الفصل أن أركز على شاعرية عزام.

وسأبدأ بديوان المثانى[1]، دون مراعاة للترتيب الزمنى. وقد أهداه عزام.. إلى

---

(١) صدر عن دار المعارف بمصر فى ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م، وكتب عزام مقدمته فى كراتشى حين كان سفيرًا لمصر فى باكستان.

والديه الكريمين رحمهما الله "اللذين أورثانى فيما أورثانى حب الخير، والخضوع للحق، والإباء على الباطل":

من وراء السنين أهدى كتابًا ... فيه من حكمة الحياة سطور

فى مكان به القريب بعيد ... وزمان به القليل كثير

قدم عزام لهذه الأبيات ـ كما سماها ـ وذكر أنه سيقتصر كلمته هذه على تاريخ نظم هذه الأبيات وعلى تسميتها..

فذكر: هذه أبيات نظمتْها مثانى فى أوقات شتى، خطرت لى فى الحضر والسفر حتى فى الطائرة، خطرت حين الفراغ وحين العمل بالليل والنهار.

"نظمت الأولى منها فبدا لى أن أنظم أمثالها، وتوالت الخطرات وتوالى النظم، وكتبت ما نظمت فور نظمه أحيانًا. وكثيرًا ما نظمت فى الطريق فحفظت ما نظمت حتى تيسرت كتابته، ثم حرِّصتُ على أن أسجل وقت النظم ومكانه، ولكنى لم أثبتها مع الأبيات لئلا أعنى القارئ بها، إلا أن يكون متصلين بالمعنى. يتضح بها، أو يكمل معهما، أو كان فى إثباتهما فائدة أخرى.

نظمت الخطرة الأولى على شاطئ بحر العرب فى كراتشى (كراجى) يوم الخميس التاسع والعشرين من ذى القعدة سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة (٢١ آب ١٩٥٢م).

ونظمت آخرها وأنا أكتب هذه المقدمة، يوم الأحد ثامن عشر صفر ١٣٧٤هـ (١٧ تشرين الأول ١٩٥٤م)، ونشرتها كما نظمتها على ترتيب التاريخ ولم أجمع المتشابهات منها بالتقديم والتأخير، فرب بيتين فى معنى يبعدان مكانًا عن أبيات أخرى فى معناهما، ويجاوران أبياتًا لها معان بعيدة عنهما.

وكتبت عنوانًا لبعض المثانى توضيحًا لفكرة اشتملت عليها، أو جمعا للمثانى التى تتوالى فى معنى واحد أو التى يجمعها مكان واحد أو زمان من الأمكنة

والأزمنة التى رأيت أن أثبتها مع الأبيات ؛ جمعت هذه تحت عنوان واحد وبينت تتابعها بكتابة حرف "ت" بجانب أرقامها".

ولم ينس عزام فى كتابة تلك المقدمة دوره كأستاذ للدراسات الشرقية ورائدًا لها فذكر.. تحت عنوان: "وسميتها المثانى". وكان بدا لى أن أسمى هذه الأبيات رباعيات، كاصطلاح أدباء الفرس فى الأبيات الثنائية، وكما جرى العرف بين أدباء العرب فى هذا العصر ؛ ولكنى عدلت عن هذه التسمية بعد التأمل.

واليك البيان:

١ـ الرباعى فى الفارسية:

عُرف وزن الرباعى منذ عُرف الشعر الفارسى الحديث ـ (أى الشعر الفارسى بعد الإسلام) منذ أواخر القرن الثالث الهجرى.

ويقول شمس الدين محمد بن قيس الرازى مؤلف كتاب:

"المعجم فى معايير أشعار العجم".

وهو أوسع وأقدم ما كتب فى هذا الموضوع بالفارسية[١]:

"إن أحد متقدمى شعراء العجم ـ وأحسبه الرودكى[٢] ـ أخرج من بحر الهزج وزنًا مقبولاً تميل إليه الطباع السليمة فسمى الرباعى".

ثم يروى المؤلف قصة اختراع هذا الضرب من الوزن فيقول إن الشاعر الذى اخترعه كان يجول فى متنزهات مدينة غزنه فى يوم فرأى جمعًا من الصبيان يلعبون بالجوز. وبينهم صبى مليح فصيح اتجهت إليه عيون النظارة. فرمى الصبى جوزة فلم تصب الحفرة وجاوزتها ثم رجعت تتدحرج حتى وقعت فيها فصاح الصبى:

---

(١) كتب فى أوائل القرن السابع الهجرى، وللمؤلف كتاب آخر اسمه المعرب فى معايير أشعار العرب لا يوجد اليوم.

(٢) أبوجعفر الرودكى السمرقندى أقدم شعراء الفرس الكبار، خلال العصر السامانى، القرن الرابع الهجرى.

غلتان غلتان همى رَوَد تابُن كو
(تتدحرج تتدحرج ذاهبة إلى قعر الحفرة)

فأعجب الشاعر بهذه الجملة فى هذا الصوت. وأدرك فيها وزنًا جميلاً فقاسه على أوزان العروض حتى أخرجه من بحر الهزج. وضم إليه شطرًا على قافيته وبيتًا على وزنه. فصارت الشطرات الأولى والثانية والرابعة متفقة فى القافية، والثالثة مطلقة.

ثم يصف المؤلف شيوع هذا الوزن وفروعه، وافتنان الناس به إلى أن يقول: "وجرت العادة أن يسمى ما نظم بالعربية من هذا الوزن "قولاً" وما نظم بالفارسية "غزلاً". وأهل العلم يسمون ملحونات[1] هذا الوزن "ترانه" وغير الملحون "دوبيت" وسماه المستعربة "الرباعى".

وظاهر أن هذا الضرب سمى رباعيّا لأنه مؤلف من أربعة أشطر، كما سمى "دوبيت" لأنه مؤلف من بيتين. ولكن مؤلف المعجم يقول إن المستعربة سماه رباعيّا لأنه مؤلف من أربعة أبيات بحساب العروض العربى. لأن الهزج فى العربية لا يزيد على مفاعلين أربع مرات. وفى الفارسية كل شطر فيه أربع تفعيلات. فساوى الشطر فى الفارسية البيت فى العربية.

ويوافق هذا ما فى كتاب معيار الأشعار. وهو كتاب فارسى ألف سنة ٦٤٩هـ ولا يعرف مؤلفه. نقل عن هذا الكتاب الشيخ سيد سليمان الندوى رحمه الله فى كتابه عن الخيام:

"وقال القدماء على هذا (وزن الرباعى) شعرًا كثيرًا. وقفوا كل مصراع وعدوه بيتًا مثل الرجز المشطور... ولهذا حسب القدماء الرباعى أربعة أبيات وسموه "جهاربيت" وسموه بالعربية "الرباعى" والتزموا التقفية فى الأربعة.

وأما المتأخرون فقد تركوا مربعات هذه الأوزان وعدوا كل بيت منها مصراعًا

---

(١) ما لُحّن للغناء.

وسمـوا الرباعـى "دوبـيت" ولم يشـترطوا التقفـية (يعنـى فـى كـل شـطر) أ هـ".

ولعل مما يؤيد هذا أن الرباعيات العربية التى رواها الباخرزى مقفاة الأشطر كلها. ولكنا لا نسلم بقول صاحب معيار الأشعار إن القدماء التزموا تقفية وكل مصراع. فقد أثرت رباعيات عن الرودكى والعنصرى وغيرهما من المتقدمين لم يقف فيها الشطر الثالث.

ويمكن أن يقال إجمالاً: قد اتفق الشعراء المتقدمون والمتأخرون على وزن الرباعى. ومال المتقدمون إلى تقفية الشطور كلها ولم يلتزموه، ومال المتأخرون إلى إطلاق الشطر الثالث ولم يلتزموه أيضًا. واتفقوا على تسميته بالرباعى، واختلفوا فى تعليل التسمية، أهى نسبة أربعة أشطار أم أربعة أبيات.

وقد أخرج شعراء الفرس أربعة وعشرين ضربًا فى وزن الرباعى نصفها من الهزج الأخرم، وهو يبتدئ بمفعول، ونصفها من الهزج الأخرم ويبتدئ بمفعولين.

وهى فى ظاهرها بعيدة من الهزج بما لحقها من الزحاف والعلة، ولكنها فى اصطلاح العروضيين مأخوذة منه متصلة به.

الرباعى فى اللغة العربية:

يقول مؤلف المعجم: (المعجم فى معايير أشعار العجم):

"ولم يكن الزحاف المستعمل فى هذا الوزن معروفًا عند العرب فلم ينظم فيه القدماء شعرًا عربيًا، ولكن المطبوعين من المحدثين أقبلوا عليه اليوم كل الإقبال، وشاعت الرباعيات العربية فى كل بلاد العرب".

ألف شمس الدين محمد بن قيس كتابه فى أوائل القرن السابع الهجرى. وعرّفنا أن الرباعيات العربية كانت شائعة فى عصره فى كل البلاد العربية.

ونشر من أشعاره كذلك قطعًا تحت عنوان: حر مقيد وعبد مسيب[1]:

فـي الـناس عـبد قـيده رهـبة ... أو رغـبة فـي هـذه الفانـيه
يعـيش هجـيراه: واحسـرتا ... لمطمعـي يـا حسـرتا لمالـيه
يبـيت موفـودا ولكـنه ... مـرزأ قـد حـرم العافـية
معـبد الا لـدى نفسـه ... قـد أطلقـته فـي الخفـا راضـيه
يـرتع فـي سـوآته سـائبا ... كمـا تجـز الكـلأ الماشـية

❖❖❖❖❖❖

وفـيهمو حـر لـه همـة .. لكـل قـيد فـي الـورى قالـيه
تعلـوا علـى القـيد بـه نفسـه .. تطـير فـي آفاقهـا العالـية
تـراه مـن ذلـك الـورى مطلقـا .. مقـيدا مـن نفسـه الأبـية

❖❖❖❖❖❖

أنعـم بـه مقـيدا مطلقـا .. حـرية بـين الـورى غالـية

❖❖❖❖❖❖

وهذا كلام مؤلف آخر أقدم منه هو على بن الحسن الباخرزى مؤلف "دُمية القصر" المتوفى سنة سبع وستين وأربعمائة من الهجرة. يقول فى ترجمة أحمد بن الحسين الخطيب من شعراء عصره وهو من أصحاب اللسانين (العربى والفارسى):

ولم يبلغنى من شعره إلا قطع نظمها على وزن الرباعى مثل قوله:

قـد هـاض فـراقه فقـارى والله ... واسـتهلك هجـره قـرارى والله

(١) الرسالة، ع ٩٩٢، فى ٧ يوليو ١٩٥٢، باب رسالة الشعر.

أُذرى الدم ليلى ونهارى والله　　لم يغن من الهوى حذارى والله

وقوله :

أبلى جسدى هوى ظلوم جانى　　قد هجَّن قدَّه قضيب البان

يا من أضحى وماله من ثانى　　ما ضرّك لو فككت هذا العانى

ولم أكن سمعت هذه الطريقة حتى أنشدنى والدى لأبى العباس الباخرزى رباعيات على هذا النمط منها قوله :

قد صّيرنى الهوى أسير الذّلة　　واستنهكنى وما بجسمى علّة

وأستأصل هجره بصبرى كله　　لا حول ولا قوة إلا بالله

إلى اخوات لها من مقاله.

ثم نسج والدى على منواله فنظم منها أعدادًا كثيرة على وزنه ، فمنها قوله :

أعطيتك يا بدرُ عِنان القلب　　لازلت أرى هواك شانَ القلب

لو لم يكن الصدر صوان القلب　　أنزلتك والله مكان القلب

وقلت أنا :

قد ملّ هواء فافترشت الملّه　　خلّ بوصاله يسدّ الخلّه

أدمى كبدى بسيف هجر سلّه　　ما أجوره علىّ سبحان الله

انتهى كلام الباخرزى

ويؤخذ منه :

١ـ أن الرباعيات لم تشع فى العربية حتى زمن الباخرزى، فلم يسمع بها حتى أنشده والده بعضها.

٢ ـ وأن الرباعيات العربية على وزن الفارسية.

٣ ـ وأن التقفية فى رباعيات العرب تنتظم الشطور الأربعة مع أن الفارسية تلتزم فيها التقفية بين أشطر ثلاثة. والشطر الباقى وهو الثالث منها، ويجوز إطلاقه وتقفيته.

٤ ـ وأن ناظمى الرباعيات العربية استعملوا القافية المردوفة أحيانًا. وهى التى تكرر فيها كلمة بعينها، وترى التقفية قبلها.

كما فى الرباعية: قد هاض فراقه فقارى والله ... إلخ.

والرباعية: أعطيتك يا بدر عِنان القلب ... إلخ.

وهذا النوع من التقفية شائع فى الشعر الفارسى أوزانه كلها. ويظهر أن الرباعيات العربية كانت قليلة وحديثة عهد بالنشوء أيام الباخرزى، ثم شاعت من بعد. حتى عمت البلاد كما قال صاحب المعجم.

يتبين مما قدمت أن الرباعيات فى الفارسية والعربية لها وزن يخصها، ونظام فى القافية يميزها. فليس كل ما نظم بيتين بيتين يعد رباعيّا.

لهذا رأيت ألا أسمى أبياتى هذه رباعيات، إبقاء على الاصطلاح المتبع فى الأدبين العربى والفارسى. وسميتها المثانى إذ كانت الأبيات فيها تمشى مثنى مثنى.

وقد جاء فى القرآن الكريم:

﴿الله نزّل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم. ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾[1]. وحسبى فخرًا، وحسب هذه الأبيات صيتًا، أن تكون مأخوذة من القرآن.

هذه هى المقدمة التى كتبها عزام لهذا الديوان أو الأبيات كما سماها. والتى اختتمها بعد شكر دار المعارف بقوله: والحمد لله الملهم، وهو حسبى وكفى. وهذه نماذج للمثانى التى بلغت سبعة وسبعين ومائتين.

---

(١) الزمر/ ٢٣.

(١)

أيها البحر[١]

زاخر ثائر نهارًا وليلاً

أيها البحر ما هياج البحور؟

هل خلا من هديرك الدهر يومًا

أو سيخلو على مرور الدهور؟

(٢)

ترفع الشمس عن جمالك

ويصون الجمال ستر الظلام[٢]

يقرأ الناس من جمالك سطرًا

من حروف الإصباح والإظلام

(٣)

تختفى كالنجم فى الدَجْن اختفى

ثم تبدو ومْض برق للفؤاد[٣]

أنت فى غيب وومض ظاهر

ذانِ للعين بياض وسواد

(٤)

إنما التوحيد إيجاب وسلب

فيهما للنفس عزم ومضاء

---

(١) كل رباعية فيها ذكر البحر من هذه الرباعيات أنشئت على شاطئ بحر العرب فى كراجى أو قريبًا منها.

(٢) الخطاب للخلاّق جل وعلا.

(٣) كل الرباعيات من البحر الخفيف إلا هذه الرباعية، والتى بعدها نظمتها فى الرمل ولم أغيرهما.

لا وإلا قـــــوة قاهـــرة

فهما فى القلب قُطبا الكهرباء[1]

(٥)

يشغل العين والجوارحَ سَيرى

ولظى النار فى الفؤاد كمينُ

وتثور الذكرى كقدحة زند

فإذا القلب لاعِج وشُجون

(٦)

ينبع الدمع فى شئونى حينًا

وله فى الفؤاد نبـع جـلًّى

وأراه يجيش فى العين حينًا

وله فى الغيوب نبع خفى[2]

(٧)

إن يكن فى الكلام صدق وكِذْب

ولدى القلب سُّره المكنــون

فعلى الصدق فى العيون دليل

وعلى الوجه شاهد لا يمين[3]

(٨)

أمنح الناس مسمعى وحديثى

وأُلاقــى كلامهـم بكـلام

---

(١) إنما يكمل التوحيد بالنفى التام والإيجاب فهما كالقطبين السالب والموجب فى الكهرباء لا تكون بدونهما.

(٢) يكتئب الإنسان حينًا غير عالم سببًا ظاهرًا للاكتئاب.

(٣) لا يكذب.

وسوى ذاك فى الفؤاد حديث

من وراء الأسماع والأفهام

(٩)

ينبع الشعر والشواغل شتى

كانبجاس المياه بين الرمال

تبصر الماء صافيًا لست تدرى

كم فياف سرى بها وجال[١]

(١٠)

الوجـــدان

عقبات تفل كل شَباة

وزَمـاع يذلـــل العقبـــات

نحن لولا الوجدان يهدى ويحدو

قهرتنا الأهوال فى الطرقات

(١١)

كلما أظلم الطريق وأعيا

وتناجت بيأسها الركبـــان

أبصر الركب للمنازل نارًا

وهداهم إلى الديـــار أذان

(١٢)

فى نور القمر

أحسب البدر ساطعًا، نبع ماء

فأرجّى لديه تطهـير ذنبى

---

(١) للشعر بواعث بعيدة وقريبة وظاهرة وخفيفة لا يحيط بها الشاعر.

وأراه من الأشعة فيضًا

أتمنى لديه تنويـر قلـبى

(١٣)

الإبـاء

قد عبرنا حدائق الحسن فى الأر

ض تُرينا الثمارُ كلَّ شـهى

وكبرنا عن أن نسف إليها

فمضينا كطائـر وحشـى

(١٤)

بين الحسن والقلب

يطبع الحسن شكله فى فؤادى

ولقلبى على الجمال انطباع

بين نفسى والحسن أخذ ورد

مثل ما غازل المرايا شُعاع[١]

(١٥)

قال لى صاحب: أراك غريبًا

بين هذا الأنـام دون خلـيل

قلت: كلا بل الأنام غريب

أنا فى عالمى وهذى سبيلى[٢]

---

(١) الحسن يؤثر فى النفس، وبالنفس يقوم الحسن.

(٢) يشرح عزام فى الهامش مقصده فيقول: إن خالف الإنسان الناس وهو على يقين من رأيه وعمله فهو فى عالمه ليس غريبًا وهم غرباء عنه.

(١٦)

قد تهاوى إلى الحضيض أناس

وخزُوا حين حوسبوا بالظواهر

ليت شعرى فما يكون الناس؟

ما يكونون "يوم تُبلى السرائر"؟[١]

(٢٣)

إنما النفس وحدها نزعات

شاردات تضل فيها الحدود

وهى بالحق شِرعة ونظام

وهى بالله عالَمٌ وخلـود

(٢٨)

قالت النفس: لا تسل لست أدرى

فى خِضمِّ الحياة ما مقصودى

غير أنى أرى شراعًا وريحًا

ومنارًا يلوح لى من بعيد

(٢٩)

لا يبالى الأخيار فى هذه الأر

ض بباغ ومُفـتر وحسـود

لو يبالون لم يُشقُّوا طريقًا

بين هذى الآفات شطر الخلود

(٣٦)

---

(١) كتبت فى ذى الحجة ١٣٧٢هـ/ سبتمبر ١٩٥٣م وقد ذكرت لأول مرة فى العدد رقم ١٠١٣ فى الأول من ديسمبر ١٩٥٢، حيث ذكر البيت الثانى على هذا النحو:

ليت شعرى فيما يكون رجال؟ ما يكونون "يوم تبلى السرائر"؟

علماء الزمان فى درجات[1]

لا من العلم بل من الأموال

أترى هذه الوظائف أنمّا

نابها قوّمت نفوس الرجال؟

(٣٩)

قيل لى كم ترى عَمِرْتَ سنينا

قلت: عُمرّت أعصرا لا تعد

أنا منذ الآزال فى الدهر ماض

وإلى الآباد سيرتى، لا أحَدُّ

(٤٠)

إنما الخير ألفة واتصال

بينما الشر نُفرة وشقـاق

فى جذاب وفى اتصال ونظم

تستمرّ النفوس والآفاق[2]

(٤١)

فى جهاد الحياة ربح وخسر

وصروف ما بين سعد ونحس

والسعيد السعيد من قال حقا:

"صنت نفسى عما يدنس نفسى"[3]

---

(١) فى القرآن الكريم: ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أتو العلم درجات﴾. المجادلة/ ١١.

(٢) يشرح فى الحاشية مراده، ويقول: نظام العالم قائم بالتجاذب والانتظام.

(٣) مطلع إحدى القصائد للبحترى – ذكر ذلك عزام فى الهامش ص ٤٥ من الكتاب.

(٤٥)

قلت: ماذا الهيام فى شهواتٍ؟

قيل: هذى حياتنـا فى الصميم

قلت: زيدوا حياة عقل وروح

- إن صدقتم - إلى حياة الجسوم[١]

(٤٧)

لا فراغ فى النفس

املأن بالتوحيد قلبا وإلا

ملأتهُ معـابـد الأوثـان

واشغل النفس بالمعالى وإلا

شغلتها وساوس الشيطان[٢]

(٦٨)

ينكر الفضل حاسد وجهول

وغوى إلى هـواه يميـل

أكثر الناس يخذل الحق فيهم

ناصرُ الحق فى الأنام قليل

(٧٥)

التصوف فى الأسواق

ليس شيئاً تصّوف من تقىّ

فرّ من غمرة الحياة بدينِ

---

(١) يقول عزام: "الحياة فيها جسم وروح وعقل. فلماذا يُعنى فيها بالجسوم وحدها؟ إن أردنا الحياة حقًا فعلينا أن نعنى بالثلاثة".

(٢) عبّر عزام عن هذا المعنى كثيرًا فى كتابه "الشوارد أو خطرات عام" كراتشى ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م. مثل خاطرة بعنوان: "من لم تشغله العظائم شغلته الصغائر".

إنما يُعرَفُ التصوفُ فى السو

ق بمال ومطمــع وفُتــون

(٧٦)

الموسيقــى

تعلن الصوت من ضمير الغيوب

وتلاقى الحِجى بلغز عجيب

أدوات بَدَوْن صُمّا ويُكْمَا

كيف وافى بهنّ صوتُ الحبيب[١]

(٧٧)

ليت شعرى رنين أوتار عود

أم أنــين بصــدره المحــزون؟

ليت شعرى بصدر عود أنينٌ

أم بصدر حَنَا عليه حَنونِ[٢]

(١٢٩)

من حافظ الشيرازى

لا تقل لى دَع الغناء وأقصر

لا تؤّمل فى المرج صمت القبور

أى صحو وفى هواك حديثى؟

أىّ صبر وفى اقتفاك مسيرى؟

---

(١) يشر عزام أن هذا البيت مأخوذ من قول جلال الدين الرومى:

خشك جوب وخشك تار وخشك بوست

أزكجامى آيد اين آوازدوست

(٢) أهذا الصوت رنين العود أم أنينه، وهذا الأنين فى صدر العود أم فى صدر العازف الذى حنا على العود؟ المثانى. حاشية ص ٦٣.

والرباعية ترجمة لبيتين لحافظ الشيرازى وهو واحد من أكبر شعراء الغزل فى إيران. كان ديوانه رسالة الدكتوراه لإبراهيم أمين الشواربى.

(١٥٢)

تاجر العلوم

يملأ الكتب حكمة وعلوما

هو منها بمعزل فى الصميم

لست والله عالما أو حكيما

إنما أنت تاجر فى العـلوم

وعن الشعر ومراجعته قرض الرباعيات التالية :

(١٧٦)

أيها الشعر قد هُجرت زمانا

شغلتنى عن وحيك الضوضاء

وأرى فى هتافك اليوم شغلاً

عن أمور يعافها الحكمـــاء

(١٧٧) ت

قد تركتُ الأشعار ثورةَ حرّ

ثم راجعتها بقلبٍ حكيم

كانت الأمس فى السحاب بروقًا

وهى اليوم ديمة فى نسيم[1]

---

(١) الديمة المطر الدائم، تسكن الريح فيستمر.

(١٧٨) ت

إنما الشعر حكمة فى البرايا

أخذتها النفوس بالتلوين

فهى تحمرّ من دماء قلوب

وهى تبيض من ضياء عيون[١]

وتحدث عن ميلاد الرسول عليه الصلاة والسلام عام ١٣٧٣هـ، فقال:

(١٨٣)

ميلاد الرسول[٢]

قيل: نحيى ميلاد خير رسول

ولذكراه فى النفوس جلال

قلت: نحيى ألفاظها بكلام

وتُميت المعانىَ الأفعال

(١٨٤) ت

يا رسول السلام والبر والرحـ

ـمة والعدل والسنا والسناء

إن ذكراك مولدٌ لمعان

أبد الدهر مالها من فناء

(١٨٥) ت

إن بينى وبين ذكراك عهدًا

أن تشيع الضياء فى أرجائى

---

(١) كل حقيقة فى العالم تصلح للشعر إن مستها العاطفة أو صورها الخيال.

(٢) سنة ١٣٧٣هـ.

وتَصبَّ الغيوث فوق مواتى

وتنَير الرياض فى صحرائى

(١٨٦) ت

كلما أظلم الرجاء وحِرنا

وأدلهمّت على السفين السبيل

لاح من ذكرك المنير رجـــاء

وضـياءٌ وغايـــة ودليـــل

(١٨٧) ت

ألف داعٍ مضلّل ومنـــاد

وظـلام وعِـثْيَر ودخـان

ويناجى القلوب منك ضياء

ويشق الضوضاء منك أذان

(١٨٨)

يمحق الدهر كل عين وشخص

ثم يغشى التذكرَ النسيان

غير أن الإحسان يبقى عليه[1]

لا يغشى على سناه، الزمان

ويقول عن الشعر مرة أخرى:

(٢١٠)

إن للشعر ساعة هو فيها

فيض نبع مُقَهقهٍ بالزلال

لا ترمه، إن غاض، بالحفر عنه

فتصبه بحمأة ورمـــال

---

(١) أى على الدهر.

وبعنوان: الأستاذ الحق، تحدث فى الرباعية:

(٢٣٣)

ليس أستاذنا الملقّنَ درسًا

ومجيلَ الأقلام بالتصحيح

وهو من يقرئ الزمان ويقفو

صفحات الأيام بالتنقيح

(٢٢٨)

نُطقهُ الذكرُ، والسكوت لفكر

ومجالُ العينين فى الاعتبار[1]

ذلكم فى الحياة أعلى مقام

نافِسوا فيه يا أولى الأبصار

وعن الحرية قرض:

(٢٥٥)

حُدّ حريــة الجماعــة حــتى

يُحكِم الفردُ فى هواه القيودا

إن حريــة الجماعــة فوضــى

حينَ يعدو الآحاد فيها الحدودا

(٢٥٦) ت

قَيّد الحرُّ نفســـه برضـــاه

وأبى فى الحياة قيــدَ ســواه

---

(١) جاء فى حديث نبوى، وأمرت أن يكون نطقى ذكرًا، وصمتى فكرًا، ونظرى عبرة.

وترى العبد راضيا كل قيد

غير تقييد نفسه عن هـــــواه

وآخر ما سطره من مثانى هى تلك:

(٢٧٧)

أمل دائب وسعىُ دوامٌ

ووميض الأفكار، معنى الحياة

يقظةُ العين للسُّبات ولكن

يقظة العمر مالها من سُبات[١]

وقد قدم عباس محمود العقاد لهذا الديوان تقديمًا أوضح فيه منزلة عزام فى الشعر وفى التصوف والسياسة حيث وصفه بالشاعر المتصوف السياسى، وقال: "كان أول ما قرأت من شعر الدكتور عزام ديوانًا لطيفًا جمع بين طائفة من مترجماته للشاعر المتصوف محمد إقبال الملقب بشاعر الإسلام، وطائفة من مبتكرات عزام فى المعانى الصوفية أو المعانى الروحية، وتشابه النسق فى الشعرين لأنهما فى العربية من كلام ناظم واحد. وتشابه الجوّان. ولا أقول تشابه المعنيان، حتى لقرأت مثنوية لعزام حسبتها من كلام إقبال، ولم أصحح هذا السهو إلا بعد مراجعة وتحقيق.

لا يتشابه الجوّان الروحيان هذا التشابه لأن الدكتور عزام يعجب بإقبال ويترجم كلامه إلى العربية، فلابد من سليقة صوفية فى روح شاعرنا العربى توحى إليه معانيه وخواطره، ولاشك أن الأصح من القولين أن هذه السليقة الروحية فى نفس عزّام هى التى حبّبت إليه إقبالاً ومالت به إلى الإعجاب

(١) يقظة العمر: حياة الإنسان كأنها استيقاظ من العدم. وهذه لا يدركها النوم مادام الإنسان حيًا، فليحذر الإنسان أن يجعل هذه اليقظة نومًا.

بشعره، فهذه السابقة هى مصدر الإعجاب بإقبال، وليس الإعجاب بإقبال مصدرها الأول ومبعثها الأصيل[1].

وعدت أقرأ لعزام بعد ذلك الديوان اللطيف فلم يزل هذا الخاطر يثبت عندى ويتمكن كلما قرأت له جديدًا من الشعر أو قديمًا فاتنى إن أقرأه فى حينه. ثم قرأت هذه المثانى وفى ذهنى هذا الخاطر فلم يزل يثبت كذلك ويتمكن كلما تتبعتُ أبياتها وموضوعاتها، حتى أكاد أنقل الديوان، أو معظمه، إذا أردت أن أسوق الشواهد على أصالة السليقة الصوفية فى نفس الشاعر العالم الأديب.

لا يحتاج أن يقتبس الصوفية من أحد من يلهمه ضوء القمر على صفحة البحر أن يقول:

أحسب البدر ساطعًا نبع ماء

فأرجّى لديه تطهير ذنبى

وأراه من الأشعة فيضًا

أتمنى لديه تنوير قلبى

أو يقول:

ذلك الماء والأشعة طهرُ

وصفاءُ، يُخال نورا وبحرا

إيه يا نفس. فاطهرى وأضيئى

واشربنْ يا فؤاد صفوا وطهرا

فليس أشبه بفطرة المتصوف من تطهير النفس بجمال الكون، ومن اتخاذ الجمال واسطة إلى الله.

ولا يحتاج أن يقتبس الصوفية من أحد من يفرق بين شريعة الباطن وشريعة

---

(١) عبدالوهاب عزام، المثانى، مقدمة عباس محمود العقاد، من ٧ إلى ١٤، دار المعارف بمصر.

الظاهر هذا التفريق:

قـيل هـذا محلّـل لا تدعـه ... قلـت هـذا الحـلالُ عـندى أثـام

هـو فـى شـرعة الفقـيه حـلال ... وهـو فـى شـرعة القلـوب حـرام

فهذا ميزان التصوف من قديم الزمن للفضائل الظاهرة والفضائل الخفية. وقصة موسى والخضر عليهما السلام خير مذكر بهما من آى القرآن الكريم.

ومن أعماق التصوف أن تواجه النفس آفاق الأبد متحررة من حدود الأزمان كما قال الشاعر:

لا يبالى الأحرار فى هذه الأر ... ض حـدود الـبقاع والأوطـان

ومـن الـناس مـن يحـرَّر حتـى ... لا تـرى نفسُـه حـدود الـزمان

أو كما قال:

فلـك دائـر وصـبح ومَسـىّ ... أخـذ الـناس فـى الـزمان دُوار

حـرر الـنفس مـن نهـار ولـيل ... تجـد الدهـر مـا بـه تكـرار

وإذا اقتبس الناقل فى معانى التصوف، فإنما يقتبس العبارة المتفرقة هنا وهنالك، ولا يقتبس السليقة التى تنظر إلى كل شىء بمنظار واحد فيما هو قريب وما هو بعيد من لباب الحقيقة الصوفية.

وهذه السليقة هى التى أوحت إلى شاعر المثانى أن يجعل للصلاة وضوءًا من العفة إلى جانب الوضوء من الماء.

اسـأل الظـالم المصـلى مـن ذا ... قـد أحـلَّ الصـلاة للظـلام

أول الطهـر للصـلاة اغتسـال ... يـرحض الـنفس مـن حقوق الأنام

ويستطرد العقاد فيقول: يقول القارئ: عجب، أصوفى وسياسى؟... إن الدكتور عبدالوهاب عزام كما يعلم القراء سفير مصر (آنذاك) الموفق فى

باكستان. وهو من ثم فى زمرة أهل السياسة الذين مثلوا لأبناء عصرنا فى مثال يقول القائل منهم ما يشاء. إلا أنه مثال الصوفية والمتطهرين.

... "لا عجب فى أن يجمع شاعر المثانى بين السليقة الصوفية وملكة السياسة، لأنه يدين بالصوفية التى دعته إلى الإعجاب بشعر إقبال، وما كان إقبال من متصوفة (الفناء) الذين يقولون (لا) حين يواجهون العالم أو يواجهون الوجود من ظاهره إلى خافيه، ولكنه كان من متصوفة (الثبوت) الذين يقولون: "نعم نعم" لكل مظهر من مظاهر الحياة أو الوجود.

تصوف لا يهرب من غمرة الحياة، لأنه:

إنما يعرف التصوف فى السو ق بمال ومطمع وفتون

وتصوف لا ينكص عن المعالى. لأن المعالى إذا ملأت النفس أخرجت منها وساوس الشيطان.

املأ النفس بالمعالى وإلا ملأتْها وساوسُ الشيطان

ومثل هذا التصوف والعمل فى ميادين السياسة لا يتناقضان، ولاسيما تصوف "السفارة" وهو من الألف إلى الياء وئام وسلام.

يقول المتصوف كما يقول السياسى السفير مع الشاعر:

أمنح الناس مسمعى وحديثى وألاقى كلامهم بكلام

وسوى ذاك فى الفؤاد حديث من وراء الأسماع والأفهام

ويقول المتصوف كما يقول السياسى السفير مع الشاعر:

قلت للنفس ساء ظنى بالنا .. س وشاهدت وجوههم والسماتُ

قالت: اصقل مرآة نفسك وانظر .. رُبّ وجه تُشوّه المرآة

ويقول المتصوف كما يقول السياسى السفير مع الشاعر:

كـم بهـذا الأنـام أحسـنت ظـنا .. فنهتنـــى عـــواقبُ التجـــريب
ثـم عـاودت فيهم حسـن ظنـى آمـــلا فـــيهم صـــلاح القلـــوب

ويقول المتصوف كما يقول السياسى السفير مع الشاعر:

إن فـى الـنفس بغضـة لأناســـن أصـــلحنْهم وحببـــنهم إلـــيّا
واغسـل الحقـد والهـوى من فؤادى واجعلنـــى لكـــل حـــق ولـــيا

وجمع ذلك كله قوله فى ضبط النفس مفرقا بين الحر والعبد:

قَـــيَّد الحـــر نفســـه برضـــاه .. وأبـــى فـــى الحـــياة قـــيدَ ســـواه
وتـرى العـبد راضـيا كـل قـيد .. غـــير تقيـــيد نفســـه عـــن هـــواه

على أن الشاعر السياسى كان سفيرًا بين مصر والشرق بعلمه قبل أن يكون سفيرًا لهما بعمله.

وستكون هذه المثانى صلة جديدة بين آدابنا وآداب الفرس والهنـود، فإنها تـجدد لنـا القالب الذى أفرغت فيه طائفة مختارة من شعر هذه الأمم. وتزيد عليها فضل النسبة العربية فيما استوحاه الشاعر العالم السياسى من سليقته وفطنته وخياله..

وهكذا نرى أن عزام قد خلّف أشعارًا توضح شاعريته، وتملكه ناصية الشعر. وقد اتضح هذا منذ صدر شبابه، حين أخذ ينقل الشعر الفارسى والأردى والتركى إلى اللغة العربية فيما ترجم عن الفردوسى وجلال الدين الرومى وفريد الدين العطار وعبدالحق حامد ومحمد إقبال وغيرهم. وكانت ترجماته لأعمال محمد إقبال ذات اهتمام ومنزلة خاصة عند عبدالوهاب عزام، فقد رد على محمد

إقبال من منظوميته "أسرار خودى، ورموز بى خودى"، أى أسرار الذاتية ورموز اللاذاتية، أو أسرار إثبات الذات ورموز نفى الذات[1]..

وهما عماد فلسفة إقبال وقطب شعره. نظمها بالفارسية، وقد نقلها عزام إلى العربية، وقال: "وقد ماطلتنى الترجمة سنة، وكنت ترجمت رسالة المشرق فى نحو أربعة أشهر. وكذلك ترجمت ضرب الكليم، وقد شغلتنى ترجمة "الأسرار والرموز" أكثر من سنتين.. وقد أمضيت ثلاث سنوات ونصف سنة وأنا فى شغل بترجمة هذا الكتاب وتحريره ولولا صحة العزم وعظم الرغبة، ما تيسرت ترجمة هذا الديوان القيم، ولحال اليأس أو العجز دون إتمامه".

"لا أعرض لطريقة الترجمة، ولا أتحدث عن صعوبتها، ولاسيما ترجمة النظم بالنظم، على اختلاف اللغتين فى المجازات والأساليب وعلى غرابة الموضوع، فقد أثبت عن هذا وهذه مقدمة الديوانين رسالة المشرق وضرب الكليم.. على أن فى الترجمة جانبًا من اليسر، لأن معظم المصطلحات عربى، وأن الموضوع إسلامى على ما فيه من فلسفة".

"وبعد... فإلى قراء العربية أقدم الديوانين الثالث والرابع من دواوين إقبال التى تجشمت ما تجشمت فى نقلها إلى العربية حرصًا على إشاعة ما فيها من دعوة إلى الحياة والأمل والعمل، والسمو بالإنسان إلى أعلى ما قدر للإنسان من ارتقاء.. ورغبة فى إمداد أدبنا بهذا الضرب من الأدب الإسلامى الإنسانى الرفيع".

"رأى الصوفية فى (الذاتية) أمرًا منكرًا... إذ كان التصوف بزعمهم، يقصد إلى إذلال النفس وإماتتها حتى تؤهل للفناء فى الله...

وزاد الصوفية ثورة على شاعر الحياة والقوة أنه عمد إلى إمام من أئمتهم

---

(١) نشر الشاعر محمد إقبال أول دواوينه الفلسفية.. أسرار خودى ١٩١٥، وهى منظومة طويلة فى بحر واحد وعلى القافية المزدوجة، مقسمة إلى فصول.. يوضح فيها الشاعر فلسفته فى (الذاتية) فكرة بعد فكرة، ثم نشر ديوانه الثانى المتصل بهذا الديوان "رموز بى خودى"، وهى كلمة فارسية تدل على الأثرة والإعجاب بالنفس. ولكن إقبالاً نقلها إلى معنى آخر جعله قاعدة فلسفته، هو "تعرف الإنسان نفسه، وتقويتها، وإخراج ما أودع فيها من مواهب".

وشاعر من أعظم شعرائهم "لسان الغيب حافظ الشيرازى" فحط من شأنه، وغض من طريقته، ونهى الناس عنها، وحذرهم منها...

وكذلك خالف محيى الدين بن عربى. وغلّطه وقال عن آرائه أنها غير إسلامية. وقال: "ولا أنكر عظمة الشيخ ابن عربى وفضله، بل أعده من كبار فلاسفة المسلمين ولا أرتاب فى إسلامه. فإنه يحتج لعقائده ـ كقدم الأرواح ووحدة الوجود ـ بالقرآن مخلصًا، فآراؤه على صوابها وغلطها قائمة على تأويل القرآن، وأرى أن تأويله غير صحيح، فأنا أعده مسلمًا مخلصًا ولا أتبعه فى مذهبه.

وفى رسالة كتب فيها لأحد معارضيه: "إن الرهبانية ظهرت فى كل أمة، وعملت لإبطال الشريعة والقانون ـ والإسلام فى حقيقته هو دعوة إلى مخالفة الرهبانية".

وكتب فى رسالة أخرى إلى أحد معارضيه يفسر له موقفه من هذا التصوف: "كل شعر التصوف ظهر فى زمان ضعف المسلمين السياسى، وكل أمة يصيبها ضعف كالذى أصاب المسلمين بعد غارات المغول (التتار) تتبدل أنظارها وتجمل الاستكانة فى أعينها، وتركن إلى ترك الدنيا، وفى هذا الترك تخفى ضعفها وهزيمتها فى تنازع البقاء.

هذه لمحات قليلة لما ضمنه إقبال ديوانيه أسرار إثبات الذات ورموز نفى الذات من معانى".

وقد رد عليه عزام باللمعات[1] فى مقال تحت عنوان (لمعات) إلى الفيلسوف الشاعر محمد إقبال جوابًا لكتابيه ("أسرار خودى" و"رموز بى خودى") ذكر فيه أن للصوفية فلسفة عالية فى العالم والإنسان والخلق، ولهم آراء حكيمة فى الأخلاق والاجتماع.

وفى العربية كثير من الشعر الصوفى مُفَرقّ فى بقايا الكتب، وفيها دواوين

---

(١) الرسالة، ع ١٦٥، فى أغسطس ١٩٣٦م.

خصت بهذا الضرب من الشعر، أسيرها ذكرًا ديوان ابن الفارض، ودواوين ابن عربى، وديوان النابلسى.

ولشعر الفارسية المقام الأسمى فى الشعر الصوفى، وقد حاكاهم فيه شعراء التركية والأردية.

وأعظم شعراء الفارسية فى هذا مجد الدين سنائى وفريد الدين العطار وجلال الدين الرومى وهو زعيم الصوفية وفلاسفتهم جميعًا. وكأن الله سبحانه أراد أن يبعث مولانا جلال الدين فى هذا العصر مزودًا بفلسفته وعلومه، إلى فلسفة الصوفية، وصفاء نفوسهم، فبعثه فى صورة شاعر الإسلام وفيلسوفه (محمد إقبال الهندى) (قبل قيام دولة باكستان) ولإقبال منظومات كثيرة بالفارسية والأردية.

ومن منظوماته كتابان: سماهما "أسرار خودى" ورموز بى خودى "أى أسرار الذاتية ورموز اللاذاتية ومدار البحث فى الأول بيان أن العالم قائم على الذاتية.. وأن حياة الإنسان بإبراز ما أودع فى فطرته من المواهب وتقوية نفسه. ومدار البحث فى الكتاب الثانى: ائتلاف الأفراد فى الجماعة، وما تقوى به الجماعات.

وقد ترجم عزام فى الرسالة صفحات هذه الكتب ومن ديوانه "بيام مشرق"، أى "رسالة المشرق" ونشرها فيما بعد. ثم أضاف إلى هذه الترجمة، منظومة اللمعات مهديًا إياها إلى محمد إقبال اعترافًا بفضله. وتستوعب اللمعات من الأبيات أربعمائة وثلاثة وثمانين بيتًا. تخللتها بعض العناوين، منها: صغار الهمم، ولا رهبانية فى الإسلام، معنى التوكل، غفلة بعض المسلمين، عن معنى التوكل، الأمل والوجدان السليم، طغيان العقل على القلب، تنافر الجماعة، الشيوعية، إقبال، وختامها دعاء. وقد جعلها عزام صدى لكتابيه المذكورين آنفًا، أى الأسرار والرموز. وأراد بهذا أن ينهج فى العربية نهجًا جديدًا، ويجعل منها مثالاً للمعانى السامية التى يتناولها الشعر إذا أطلق من عقاله، وتحرر من الموضوعات العتيقة التى اعتادها جمهور الشعراء.

وكأنما أراد عزام أن يطبق ما سبق وذكره عن التجديد وكيف أنه يكون بالممارسة الفعلية قبل التنظير النظرى، كما أراد أن يجعل من هذه المنظومة مثالاً للقافية المزدوجة التى قصرها شعراء العربية على الرجز المشطور، كما قصروا الرجز على نظم العلوم؛ كالألفية والجوهر المكنون، والتاريخ كمنظومة ابن عبد ربه فى أمراء بنى أمية، والقصص ككتاب "كليلة ودمنة".

ويرى أنه ينبغى أن يسرى هذا الضرب من التقفيه إلى أبحر الشعر الأخرى، حتى تعالج الموضوعات الواسعة. فهذا ـ كما يقول عزام ـ هو الذى سنى لشعراء الفارسية وغيرهم أن ينظموا عشرات الآلاف من الأبيات فى قصة واحدة أو كتاب واحد.

ويذكر عزام أنه اختار بحر "الرمل" ليسره وخفته واقتداءً بجلال الدين الرومى فى كتابه "المثنوى". ومحمد إقبال فى بعض كتبه، ولاسيما فى أسرار خودى ورموز بى خودى.

وهو: فاعلاتن فاعلاتن فاعلات

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

ثم التفعيلة الثالثة فى (الرمل) التى تأتى تامة (فاعلاتن) ومقطوعة (فاعلات) ومحذوفة (فعالاً). والقافية المزدوجة تجعل كل شطرين متفقين فى الروى. منفصلين بعض الانفصال عن بعضهما فينبغى أن يسوغ الجمع فى المنظومة الواحدة بين أبيات على وزن فاعلاتن، وأخرى على (فاعلات) أو (فاعلاً) تيسيراً للنظم. ولكن الجمع بين (فاعلاً) و(فاعلات). حسن لا عيب فيه، لأن الحرف الأخير فى فاعلات لا يأتى إلا بعد مدّ. وبهذا المدّ يتم الوزن، فيأتى الحرف بعد المدّ نهاية للصوت فلا يشعر المنشد باختلاف النغمة بين فاعلاً وفاعلات، مثال هذا البيتان الآتيان:

رب معنى فى ضمير يكتم

ليس فى الناس عليه محرم

وقلوب رسمها هذى الصدور

أترانى مسمعًا من فى القبـور ؟

بنى البيت الأول على (فاعلاً)، والثانى على فاعلات. ولكن الراء فى كلمتى الصدور والقبور واقعتان بعد مدّ، فيأتيان فى نهاية الصوت كأنهما لا تحسبان فى وزن البيت. وليس الأمر كذلك فى الجمع بين فاعلات وغيرها.

ويدعو عزّام أبناء العربية إلى العناية بهذا المثال الذى يقدمه فى المعانى والقوافى ليقبلوه على بينة أو يردوه بالحجة.

أذكر الآن بعض الأمثلة من اللمعات :

أيهـــا اللـــيل إلـــيك المفـــزع ... كـم حـنت مـنك علينـا أضـلع

كـم خفينـا فـى غـيابات الدجـى ... وملأنـــا اللـــيل همّـــا وشـــجى

كـــم ألفـــت اللـــيل أمـــا حانـــية ... وكـــرهت الـــنجم عيـــنًا رانـــية

كـم ألفـت اللـيل وحشًـا راقـبًا ... فـى شـعاع الصـبح سـهمًا صـائبًا

كـم بثـثت اللـيل سـرّا كـتما ... فـــوعاه اللـــيل عنـــى ألمـــاً

كانـــت الظلمـــاء لـــوحًا لـــلألم ... خطـــت الآهـــات فـــيه كـــالقلم

❖ ❖ ❖

إرة قـد وقـدت فـى أضـلعى[1] ... وسـحاب هاطـل مـن أدمعـى

كـنت سـطرًا لم يفسـره أحـد ... خطـه فـى غيـبة الله الصـمد

فـى ضـميرى كـل معنـى مُنـبهم ... حـرت فـى الإعـراب عـنه بـالكلم

قـد ثـوى العـالم فـى قلبـى ومـا ... حُط شىء فيه إلا الحرف "ما"[2]

---

(١) الأرة جبل النار.

(٢) يعنى لم يكن العالم فى قلبه إلا نفيًا.

جـل قلبـى أن أراه جـام جـام[1] صـــور الأقطـــار فـــيه تنـــتظم
رب معنـــى فـــى ضـــمير يكـــتم لـيس فـى الـناس علـيه محـرم[2]
أنـا فـى الـناس فصـيح أعجـم ناطـــق فـــيه كأنـــى أبكـــم
كيف يجدى النفخ فى هذا الرماد طفـئ الجمـر ولم تـور الـزناد
يالُبَيْنَـىَ أوقـدى، طـال المـدى أوقدى علّ على النار هدى[3]
أوقـدى يـالبن قـد صـار الدلـيل أوقـــدى الـــنار لأبـــناء الســـبيل
ارفعـى الـنار واذكـى جمـرها علّ هـذا الـركب يعشـو شـطرها
شـــردى هـــذا الظـــلام الجاثمـــا ارشـدى هـذا الفـراش الهائمـا
حـــبذا الـــنار بلـــيل تـــوقد حـــبذا المـــؤنس هـــذا المـــوقد
حـــبذا عـــندك هـــذا المنـــزل لـــو حـــدانا فـــى ســـفار منـــزل
مـا لـذا المنـزل قـد سـار الفـريق إنمـــا الـــنيران اعـــلام الطـــريق
قـد تـرحلنا مـن الفـج العمـيق لا نـــبالى بقـــريب أو ســـحيق
رنّ فـــى آفاقـــنا هـــذا الـــنداء فـأمنا البيت يحدونـا الرجاء[4]
قـد غنيـنا مـن مبـيت ومقـيل وعـــن الأمـــواء والظـــل الظلـــيل
وعـن الـرغبة والخـوف سـوى خلـع النعـلان فى وادى طـوى[5]
نحـــن لا نرضـــى بـــنار الغســـق نحـــن لا نرضـــى بـــنور الشـــفق

(١) جام جم أو كأس جمشيد فى أساطير الفرس كأس كانت فيها الأقاليم السبعة.
(٢) المحرم هنا الأمين على السر كما يؤمن المحرم من الأقارب على الحرمات.
(٣) إشارة إلى الآية الكريمة فى قصة موسى. ﴿ لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى﴾. طه/ ١٠.
(٤) إشارة إلى الآية الكريمة. ﴿ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ .الحج/ ٢٧.
(٥) الفعلان كناية عن الرغبة والخوف والإشارة إلى الآية الكريمة فى قصة موسى:
﴿ إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى ﴾. طه/ ١٢.

بـــارق فـــى اللـــوح لا ينطفـــئ ... كـــل غايـــات لديـــه مـــبدأ

زوديـــــنا بهـــــيام ووجـــــيب ... زودى يـــالبن مـــن هـــذا اللهـــيب

(٢)

يخـــرق اللـــيل شـــعاع يخفـــق ... ثـــم يلـــتفت علـــيه الغســـق[١]

كمـــنار البحـــر يخفـــى ويلـــوح ... فيه بين الغيب والومض وضوح

أو يـــراع اللـــيل يخفـــى ويـــنير ... فهو سطر من غياب وحضور[٢]

تـــارة يـــبدو طـــريقًا لجـــا ... قامت الظلماء فيه نصبًا (نصبًا)

أو بـــيان مـــن بـــياض وســـواد ... كبـــياض الطـــرس يعلـــوه المـــداد

كـــل لـــون فـــيه حـــرف يفصـــح ... ألفـــت مـــنه ســـطور وضـــح

وأراه تـــارة خطـــا أصـــم ... وكـــأن الضـــوء تفصـــيل الظلـــم

فهـــو ســـطور مـــن ســـطور أرقـــط ... أعجـــبت معـــنا، تلـــك الـــنقط

كـــان لـــون فـــيه حـــرف أعجـــم ... وحوى الأحرف سطر مظلم[٣]

وله أيضًا أشعار كتبها لابنته هالة:

وهالة[٤] إحدى بنات الدكتور عزّام، وهى صغرى بناته، وقد رافقت أباها إلى جدة حين كان وزيرًا مفوضًا لمصر لدى المملكة العربية السعودية، ثم رافقته فى سفره إلى كراتشى حين عين سفيرًا لمصر فى باكستان. ويذكر أنها كانت تقدم

---

(١) الرسالة عدد ١٦٦، الأول من سبتمبر ١٩٣٦.

(٢) يشير عزام إلى أن هذا البيت هو لإقبال ترجمته النثرية: يا براعة الليل كلك نور، وطيرانك سلسلة من الغيبة والحضور.

(٣) يشير عزام إلى أن حاصل المعنى فى هذه الابيات أن التنفس تارة تدرك إدراكًا واضحًا، وتارة تغم عليها الحقائق.

(٤) صغرى بنات الدكتور عزام. كما كتب لسائر بناته.

القهوة إلى أبيها فى ليالى رمضان، وتحرص على أن تصنعها بنفسها وتقدمها وتأبى أن يشاركها أحد. ثم تجلس إلى أبيها، فيحدثها حديث شيخ الأرانب، وهو حديث طويل بدأ فى جدة، واستمر فى كراتشى، ولم ينته.

وكان يملى عليها الحديث فى كراتشى فتكتبه، ثم تصور بعض مناظر الحديث تصويرًا دقيقًا؛ فصورت الأرانب وهى قائمة للصلاة، وصورًا أخرى.

سافر الدكتور عزّام إلى كراتشى هذه المرة وحده، وبقيت هالة فى مصر، فأرسل إليها شوقه وحنانه الأبوى بهذه الأبيات[1]:

أهالة أن شط المزار فإننى إليك ... على نأى الديار قريب
حديثك عندى، والخيال يطيف بى ... له فى خيالى جيئة وذهوب
ولكننى والحق أشتاق قهوة ... يضوع شذاها من يديك، تطيب
تزفينها بعد الطعام محرمًا ... لغيرك فيها شركة ونصيب
وأشتاق من شيخ الأرانب مجلسا ... أحدث فيه والخيال خصيب
وخطك ما أمليه تسطير حاذق ... وضحك منه، والحديث عجيب[2]
وتصوير ما سطرت تصوير حاذق ... يزيد بيانى روعة ويجيب
لأذكر صفا للأرانب قائما ... يصلى منيبا، من رآه ينيب
يكاد من الاتقان يسجد خاشعا ... ويسمع منه فى الخشوع وجيب
وجمعا دعاه للصلاة مؤذن ... وأحسن فيه قارىء وخطيب
فليتك عندى. كى أتم حديثها ... وذلك تحديث إلىّ حبيب

---

(١) الرسالة، البريد الأدبى، العدد ١٠١٤، فى ٨ ديسمبر ١٩٥٢.
(٢) ويجوز أن يكون هذا الشطر: وضحكك منه، والكريم طروب.

سجل عزّام خاطراته اليومية فى كتاب نشره باسم خاطرات. كل خاطرة تمثل قطعة أدبية سامية لفظا ومعنى، كما سجل خواطره شعرا، نشر بعضه فى مجلة الرسالة تحت باب " رسالة الشعر " فى ضروب الشعر المختلفة من القطعة والقصيدة والرباعية وغيرها.

أنقل نموذجا لها للقارئ. من مقطوعاته تحت عنوان: قافلة البشر[1].

يسير الناس على هذه الأرض فى سبل الحياة، تنبهم السبل أحيانا وتظلم وتعترض العقبات، وتبعد الشقة، ولكن الأمل يحدوهم، والوجدان يبصرهم فيهتدون ويسيرون.

قيل : ليل مظلم قلت: أذكروا — فى ظلام الليل إشراق الصباح

قيل : غيم مطبق قلت: انظروا — رب نجم من وراء الغيم لاح

قيل : وشهب طامس مشتبه — قلت: لكن فيه للسفر اتضاح

قيل : ولكن برحَ السير بنا — قلت: بعد السير إحماد النجاح

قيل : والمنزل ما آياته؟ — قلت: فى معناه للنار اقتداح[2]

قيل : هل ذاك قصارى سيرنا ؟ — قلت: بل نزل به السفر يراح

قيل : فالتسيار ما غايته ؟ — قلت : كل الدهر سير، لابراح

❖ ❖ ❖

لست طروبا

قال لى اللائمون لست طروبا — لك حقا إلى الصخور انتماء

---

(١) الرسالة ٩٩٤ فى الأول من مايو ١٩٥٢.

(٢) شرح عزام المعنى المقصود بقوله: لا يهتدى الناس إلى الغاية فى هذه الحياة إلا ببصيص من الإلهام يدلهم على المنزل.

كـم تـثير الأوتـار لحـنا فلحـنا ... ويهـز الأوتـار مـنا غـناء
وتـرى الـناس ثائـر المـوج لكـن ... أنـتَ فـى المـوج صـخرة صـماء

❖ ❖ ❖

وعلـى البحـر والعشـى صـموت ... غـير لحـن تـثيره الـدأماء
والهـلال النحـيل يلقـى خـيوطا ... هـى فـى لحمـة الدجـى أسـداء
قـد طـربنا ولم يهـز فـؤادا ... فـيك لـوز ولم يهـز المـاء

❖ ❖ ❖

كـم رأينـا الجمـال قـيد عـيون ... لـك مـنه بـرغمنا إغضـاء
تدعـى الشـعر والفـؤاد جمـاد! ... كيف ترضى انتسابك الشعراء؟
إن تكـن شـاعرا فأمـرك بـدع ... أنـت فـى الشـعر بينـنا اقـواء
حسـبك الله قـد بلغـت ملامـا ... وحمـاك الصـواب هـذا الهراء[1]
طـرب الطفـل وثـبة وصـياح ... ومـن الكهـل بسـمة خرسـاء
ومـن الغصـن فـى الـرياح اهتـزاز ... ومـن الطـود عـزة شمـاء
ضـاق قلـب عـن الجمـال مجـالا ... فـإذا كـل سـره أصـداء
رب قلـب وعـى الجمـال ولكـن ... عـز فـيه لسـرّه إفشـاء
رب قلـب حـوى العـوالم طـرا ... تصـغر الأرض عـنده والسـماء

❖ ❖ ❖

(١) هذا البيت وما بعده جواب اللائمين.

ما فوق هذى الأنجم؟

قال الصديق، وقد أطال حواره: يا صاحبى! ماذا وراء الانجم؟
قد هالنى منه سؤال هائل فأجبته بتعجب وتبسم!
يا صاح! هذى الزهر هل أدركتها حتى تجوز إلى السؤال المفحم؟
يا صاح! ما تحت النجوم؟ أعالم ما تحتها فى الكون أم لم تعلم؟
يا صاح! أرضك هذه هل تعرفن ما فى ضمير الأرض من مستعجم؟
بل ما عليها؟ هل أحطت بعلمه فى البر أو فى كل بحر خضرم
وجمادها ونباتها والسر فى حيوانها من ناطق أو أعجم
أعرفت هذا الإنس فى آحاده وثباته فى بؤسها والأنعم
ابدأ بنفسك فاعرفنها جاهدا والأرض فانفذها بعقل مقدم
واصعد بعلمك طالبا من مستوى ما فوقه، كالمرتقى فى السلم
فإذا بلغت من الكواكب منزلا فهناك فاسأل ما وراء الأنجم

ونشر عزّام من أشعاره كذلك [قطعا] تحت عنوان:

((**حر مقيد وعبد مسيب**))[1]

فى الناس عبد قيده رهبة
أو رغبة فى هذه الفانية
يعيش هجيراه: واحسرتا
لمطمعى ياحسرتا لماليه

---

(١) الرسالة ع ٩٢٢، ٧ يوليو ١٩٥٢، "باب رسالة الشعر".

يبـــيت موفـــودا ولكـــنه

مـــرزأ قـــد حـــرم العافـــية

معـــبد إلا لـــدى نفســـه

قـد أطلقـته فـى الخفـنا راضـية

يـرتع فـــى ســـوآته ســـائبا

كمـــا تجـــز الكـــلأ الماشـــية

❖ ❖ ❖

وفـيهمو حـــر لـــه همـــة لكـل قـيد فـى الـورى قالـية

تعلـو علـى القـيد بـه نفسـه تطـــير فـــى آفاقهـــا العالـــية

تـراه مـن ذّل الـورى مطلقا مقـــيدا مـــن نفســـه الآبـــية

أنعـــم بـــه مقـــيدا مطلقـــا حـــرية بـــين الـــورى غالـــية

وتحت عنوان: لا يتسع وقتنا للخطب القصار:

سمعـــت بمحفـــل خطـــباً طـــوالا تصـــاب لهـــا المســـامع بالســـقام

فقلـت: عجبت للخطباء تزجى فسـيح القـول فـى ضـيق المقـام

فكـم وقـت أضـاعوا فـى كـلام سـخيف النسـج منفـرط الـنظام

فقـــال محدثـــى: أنـــا سمعـــنا عجـيب القـول عـن أحـدالعظام!

يضـيق الـوقت عـن خطب قصار فنرمـــى بالطـــويل مـــن الكـــلام

❖ ❖ ❖

ولعزام من القطع الشعرية ما بثها فى مجلة الرسالة[1] تحت عنوان:

---

(١) الرسالة، عدد ١٨٩، ١٥ فبراير ١٩٣٧.

أروع الأشياء

أتذكرين يوم جئت حيرى ... سائلة: ما أروع الأشياء؟

أتذكرين حيرتي وإني ... طوقت في الأرض وفي السماء

ثم نشيب واللسان عيٌّ ... يعثر بين العجز والحياء

أتذكرين بعد ذلك يومًا ... أسلمك الحزن إلى البكاء

ترقرقت فيه الدموع تترى ... لألاءة في خدك الوضاء

هذي الدموع، لا عراك حزن ... أوحت لقلبي أصدق الإيحاء

أروع شيء في الورى دموع ... في مقلة الحزينة الحسناء

وتحت عنوان: شباب أم أماني:

أنشد:

يا زهرة في ضفاف الماء ناضرة ... يهتز فيها جمال جد مفتون

وللنسيم على أوراقها عبث ... ينشر فيه الحسن كل مكنون

تطالع الماء تبقى فيه صورتها ... تردها الريح عنه رد مغبون

وينفذ الدهر فيها حكمة فإذا ... شتى الوريقات بين الماس والطى

أين الشباب الذي راقت نضارته ... ورفرفت فوقه أحلام مجنون؟

أنضرة الزهر لم تثبت لناظرها ... أم صورة الماء بين الحين والحين؟

وسأكتفي بهذا القدر من الأشعار التي عبرت عما يجيش به صدره من مكتوم الانفعالات والمواقف، فحسبه المثاني تعبيرًا عن صدق شاعريته.

واختتم هذا الفصل عن عزّام شاعرًا بنقل ما قرضه على قبر أبي القاسم

الفردوسى. صاحب الشاهنامة. ونشرت مجلة الرسالة هذه الأشعار، تحت عنوان: "على قبر الفردوسى".

على قبر الفردوسى[1]

الرسالة عدد ٧٠ (٥٠ نوفمبر ١٩٣٤)

أبـا القاسـم اسمـع ثـناء الوفـود ... تـنظم فـيك عقـود الـدرر

أبـا القاسـم اسمـع نشـيد الخلـود ... يـرتِّله فـيك كـل البشـر

أبـا القاسـم اسمـع لسـان الـزمان ... يخلـدك، وهـو الضـنين، أقـرّ

فهـذى اللغـات وهـذى السـمات ... وهـذى الوفـود وتلـك الزمَـر

تترجـم عـن غـرض واحـد ... ويـدركها فـى مـداك الحصَـر

تطـيف بقـبرك صـرح العـلاء ... ويـاب الخلـود ومـثوى الظفَـر

فـيالك قـبرًا قـريب المـدى ... تظـل العقـول بـه فـى سـفَر

ويالـك قـبرًا كعـين البصـير ... ر يحـوى العـوالم مـنها الصـغَر

ويالـك قـبرًا غـدا طلسـما ... وراءك كنـز الخلـود اسـتَر

ويالـك سـطرًا بقـرآنه ... تضـيق الحـياة ويفنـى العمُـر

ويالـك بيـتًا سمـا شِـعره ... بمعنـى الحـياة ولفـظ الحجـر

وأحجـاره كحـروف الهجـا ... ء كـل المعانـى بهـا تُسـتطر

❖ ❖ ❖

---

(١) الرسالة ع ٧٠، فى الخامس من نوفمبر ١٩٣٤.

إمـــام البـــيان ورب القـــريض وأصـــبر مـــن للقـــريض صـــبر

وســـبّاق حلبـــته فـــى الـــورى ورب الحجـــول بهـــا والغـــرُر

ونـــاظم عقـــد علـــى نظمـــه تخـــر الدهـــور ومـــا يندثـــر

نظمـــت الكـــتاب كـــتاب الملـــوك ومـــا هـــو إلا ســـجل القَـــدَر

طـــويت الـــزمان وأحداثـــه بأوراقـــه ونشـــرت العـــبر

فمـا جـام جمشـيد[1] إلا كـتابك يجلـــو الأقالـــيم فـــيه البصـــر

❖ ❖ ❖

يالـــك مـــن شـــاعر نابـــغ عظـــيم الحـــياة جلـــيل الأثـــر

ويالـــك مـــن شـــاعر رابـــح وكـم شـاعر فـى الـورى قـد خسر

ثلاثـين عامًـا نسـجت القـريض حلـيف الهمـوم أليـف السـهر

ثلاثـــين عامًـــا مضـــت للفـــناء بهـــن اشـــتريت خلـــود الدهَـــر

لقـد صـدق الدهـر مـا قلـت فـى كـتاب الملـوك بغـيب النظـر:

بـنا هـاى آبـاد كَـردد خـراب بحـرّ ذكـاء وصـوب المطـر

بـى أفكـندم أز نظـم كاخـى يلـند على الـريح والقـطر مـا أن يخـرّ[2]

مضـى ملـك محمـود فـى الذاهـبين وملكـك فـى الدهـر مـا يندثـر

---

(١) كأس جمشيد كانت ترى فيها الأقاليم السبعة.

(٢) بيتان للفردوسى أثبت شطريهما الأولين بالفارسية وقد ترجم عزام الآخرين ؛ ويجدهما القارئ فى أول صورة من ترجمة الشاهنامة العربية وترجمة الشطر الأول: يخر على الدهر كل بناء، وترجمة الشطر الثانى: بنيت على الدهر صرحًا أغر.

رضاه شاه حسبك من ناصر ... لقدرك بعد القرون قَدَر

يسير ذكرك فى الخافقين ... مسير ذُكاء ومسرى القمر

❖ ❖ ❖

طوينا البحار وشُم الجبال ... وجُردَ القفار وأيك الشجر

يطير بنا الشوق ملء القلوب ... ويُحلى حديثك مُرّ السفر

وفى مصر كنت نجّى الكتاب ... بليغ العظات وحلو السمر

وها أنا فى طوس بين يَدَيْ ... ك يبهر نَفْسيِ جلال بَهر

فهيبة ذكراك روع الفؤاد ... ومشهد حفلك يُخسى البصر

يضيق علىَّ مجال الكلام ... ويشرد عنى سِرْب الفكَر

ويذهب شعرى ذهاب الحباب ... على لجة البحر حين زخر

هرتانكس كه دار دهش وراى ودين ... عليك الثناء الجميل نثر[1]

وما شاعر أنا كفء المديح ... فأهدى إليك الثناء الأغر

ولكن سحابك أحيا الموات ... وما بالإرادة ينمو الزهر

خلدت على الدهر فى الخالدين ... وخلّد شعرك من قد غَبَر

ودوى قريضك فى الخافقين ... يغنّى البدُاة به والحضر

وروحك فردوسة فى السماء ... وقبرك فردوس من قد شعر

❖ ❖ ❖

(١) هذا بيت للفردوسى معناه كل من له عقل ورأى ودين سيثنى عليه بعد الموت، وقد أبقى عزام شطره الأول وترجم شطره الثانى.